Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:34 IRDT on Monday August 31st 2020

النزعة القومية وموقف الشعراء العرب منها
قبل الحرب العالمية الأولى وفترة ما بين الحربين

الدكتورة منصورة زركوب
عضو الهيئة العلمية ـ كلية اللّغات الأجنبية

ان النزعة القومية قد برزت في الادب العربي منذ العصر الجاهلي في الاطار القبلي الذي يمثل الشعور القومي، فكان الجاهليون يفخرون بانتمائهم القومي لقبائلهم ويبرز الشعراء هذا الاتجاه في اشعارهم. ثم تطورت هذه النزعة على مر التاريخ من الاطار القبلي الى الكيان القومي واصبحت شعوراً وحاسة في العالم العربي بينما نشأت في الغرب كتيار ايديولوجي سياسي، اجتماعي من ثورة الفرنسية.

لهذه الحركة القومية التي ظهرت بوادرها في الادب الحديث في القرن التاسع عشر مميزات تمتاز بها عن نفس الحركة في الغرب. منها ان القومية اصبحت موضوعاً بارزاً من موضوعات الادب ينطوي على تصدي الشعراء للحكام والتنديد باستبدادهم وفساد حكمهم والنضال ضد الاستعمار. في الوقت الذي لم يكن الادب الغربي يعرف هذا النوع من الشعر لان الاوربيين لم يبتلوا بالاستعمار. ومنها ان القومية امتزجت فترة من الزمن ـ وهي قبل الحرب العالمية الاولى ـ بالنزعة الدينية. لان البعض كانوا يؤمنون بالاتحاد تحت ظل الخلافة العثمانية شرط ان تقوم هذه الخلافة بالاصلاحات اللازمة. اما الشعراء فقد برز موقفهم من هذه الحركة سواء كانت قبل الحرب الاولى او بعدها ، تجسدت مظاهرها في اشعارهم وانعكست في قصائدهم.

النزعة القومية ونشأتها

إنّ النزعة القومية ـ على ما نسميها اليوم ـ بدأت من الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩م وتكونت بعدها كتيار سياسي، اجتماعي ايديولوجي في الغرب. ثم ظهر في القرن التاسع عشر كبار اصحاب الآراء القومية بحيث سُمي هذا القرن عصر القومية الذهبي[١] إذ أن جفرسن وبائني أسسا هذه النزعة في امريكا واستودعها جريمي بنتام في انكلترا ابعاداً جديدة الى أن ارتفعت

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:34 IRDT on Monday August 31st 2020

على ضوء مبادئ قدمها ويليام گلدستون الذي اثار موجة من التجاوزات على البلدان النامية والسيطرة عليها.

إن الكاريبالدى في ايطاليا وفيكتور هوجو في فرنسا وبيسمارك في المانيا كانوا في طليعة اصحاب النزعة القومية في القرن التاسع عشر[٢].

بُنِي مذهب هؤلاء القوميين على أنّ الذين يملكون تاريخ مأثور وحضارة عالية وعنصر سام لهم الحق في توسيع نطاق حضارتهم الى البلدان الاخرى لتمدين شعوبها وردّها عن التخلف.

هذه الفكرة توسعت وتطورت وأدّت الى ان وقعت بلدان العالم الثالث في مخالب الاستعمار واصبحت القومية تياراً ايدئولوجياً تمسك به المستعمرون وبرّروا به غاراتهم الاستعمارية وفي الحقيقة أن القومية بدأت بنزعة انسانية لكنها انحرفت وأصبحت تؤيد العنصرية.

اما الامة العربية فكانت تتصل بواقعها السياسي وتحس بوجودها القومي منذ الجاهلية وتظهر مواقف ادبائها وشعرائها في الاطار القبلي، فهم يفخرون بانتمائهم القومي لقبائلهم.

هذا الحارث بن حلزة اليشكري يقول ويفخر بمآثر قومه ومفاخرهم بين يدي عمرو بن هند راداً عمرو بن كلثوم التغلبي[٣]:

هل عَلِمْتُم أيامَ يُنْتَهبُ الناسُ غِواراً لكلّ حيٍّ عُواءُ

اذْ رفعنا الجمالَ من سَعَف البَحْرين سيراً، حتى نهاها الحِساءُ

ثم مِلنا على تميمٍ، فأحرمْنا وفينا بناتُ قومٍ إماء

نجد الشعور القومي هذا لدى أكثر الشعراء الجاهليين لاسيما في معلقاتهم فكان الكيان القبلي يتجلى في المفاخر القبلية والاعتزاز بالنسب. ثم تحول على مرّ الزمن الى الكيان القومي حتى ظهرت في القرن الثامن عشر بوادره ونضجت بعد قرن او قرنين بفضل تفتح الوعي السياسي للعرب. فقضية القومية في البلاد العربية تختلف عما كان عليه في الغرب إذ أنها كانت في اوربا تياراً ايديولوجياً لكنها اصبحت في العالم العربي شعوراً وحاسة تمثلت في نضال العرب الذي خاضه الشعراء والادباء ضد الاستعمار والاستبداد والاحتلال في اشعارهم القومية بينما لم يكن الغرب ليعرف هذا اللون من الشعر لانه لم يبتلِ بالاستعمار[٤].

فللقومية في القرن العشرين وجهان مختلفان: الاول الوجه الامبريالي الذي دعت اليه اوربا وعلى طليعتها بريطانيا وفرنسا، والثاني الوجه النضالي ضد الامبريالية الذي ظهر وبرز في البلاد الآسيوية والافريقية التي تعاني الاحتلال والاستعمار[٥].

كيف نشأت القومية عند العرب

كانت العرب تعرف ـ كما أشرنا ـ القومية منذ عهد قديم وبرزت مواقف شعرائها وادبائها في الاطار القبلي الذي تحول فيما بعد الى الاطار القومي. فالقومية ظهرت وبرزت مظاهرها عند العرب بعد احتلال مصر بيد نابليون بونابرت سنة ١٧٨٩م بصورة غير صريحة وأخذت تميل الى الوضوح والصراحة في اواخر القرن التاسع عشر ومطلع العشرين ولذلك الظهور عوامل متعددة ابرزها:

١ ـ ازدهار الفكر القومي في اوربا آنذاك واطلاع العرب على ذلك الفكر.

٢ ـ التدخل المباشر للسلطات الغربية بانشاء المراكز العلمية وتأسيس المعاهد التعليمية ترغيباً للحركات القومية.

٣ ـ عجز الدولة العثمانية وضعفها ولجوءها الى الطغيان والتعسف بحق الشعب ورعاياها وممارستها لاعمال قهرية ازاء كل حركة تحررية.

٤ ـ تنبيه المفكرين والاصلاحيين للشعب.

٥ ـ ثورة ١٩٠٨م والتي روجت جمعية (تركيا الفتاة)

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:34 IRDT on Monday August 31st 2020

على اثرها النزعة الطورانية وتعمدت تتريك العرب.

٦ ـ احتلال السلطات الاستعمارية للبلاد العربية وتطبيق سياستها التوسعية في هذه المناطق.

٧ ـ المجزرة التي شنها جمال باشا السفاك في بقاع سوريا ولبنان.

هذه العوامل وعدة عوامل اخرى أدت الى نضوج الحركة القومية التي بدأت قصتها عند العرب في بلاد الشام سنة ١٨٤٧م بانشاء جمعية ادبية قليلة الاعضاء في بيروت في ظل رعاية امريكية[٦].

يرى جورج انطونيوس أنّ اول صوت سُمِعَ لحركة العرب القومية كان في اجتماعات هذه الجمعية التي انعقدت سراً وكان احد اعضاءها ابراهيم اليازجي الذي غذّى بقصيدته المشهورة هذه الحركة واوقظ العاطفة العميقة في الشعب[٧]. فهو يخاطبه ويدعوه الى التنبه والاستفاقة[٨]:

تنبّهوا واستفيقُوا ايها العربُ
فقد طمى السّيلُ حتى غاصتِ الرُكب
فيم التعلّلُ بالآمال تخدعُكم
وأنتم بين راحاتِ القَنا سُلب
كم تُظلمون ولَستُم تَشتكون وكم
تُستغضَبون فلا يبدو لكم غَضب؟
فشمّروا وانهضوا للأمرِ وابتدَروا
من دهركم فرصةً ضنّت بها الحِقب

في عهد عبد الحميد الثاني ١٨٧٦ ـ ١٩٠٨م امتدت الحركة القومية من بلاد الشام الى البلاد المجاورة واصبحت حركة واسعة النطاق.

أما في مصر التي أحتلت سنة ١٨٨٢م وأُصيبت باحتلال مبكر من جانب الانجليز فبدأت الحركة القومية ترمي الى هدف يختلف عما كان في بلاد الشام وهو السعي لارغام الجيش البريطاني على الانسحاب وهذا الاتجاه الفكري الجديد ظهر في مصر قبل البلاد العربية الاخرى. فالشعور القومي في مصر اصطبغ بصبغة مضادة للاحتلال بينما كان الشعور هذا في بلاد الشام يصطبغ بصبغة مضادة للحكم العثماني الفاسد.

الدكتور عمر الدقاق يعبر عن هذه الصبغة بالنزعة الوطنية في مصر والنزعة العربية في بلاد الشام والعراق إذ يقول: «هذا الشعور القومي المبكر الذي ظهرت بوادره في مصر قبل أن تظهر في سائر الشرق العربي أخذ يجد صداه في الادب ويثير النزعة الوطنية في نفوس الشعراء والخطباء والكّتاب»[٩].

وهو نفسه يقول: «على هذا فان بواكير الشعر القومي بنزعته العربية الصافية لا نجدها الا في الشام والعراق والمهجر....»[١٠].

وبما أن النزعة القومية في بلاد الشام والعراق كانت مغشية بالنزعة العربية فابتدأت هذه الحركة بمن يدعو الى البعث العربي من النصارى الذين لم يستشعروا اية صلة دينية او قومية تربطهم بالترك فبعثوا حركة تستهدف قيماً قومية بدلاً من القيم الدينية. من هؤلاء النصارى بطرس البستاني. ناصيف اليازجي. ابراهيم اليازجي وسليم نوفل وميخائيل شحاده و...[١١].

ولهذا يرى البعض ان القومية في العرب والدعوة اليها. بدأت على ضوء مساعي أشهر الصحفيين اللبنانيين الذين تدربوا بيد المفوض الامريكي المعروف (الدكتور كونيلوس فانديك)[١٢] ومن أشهر رؤساء التحرير والصحفيين يعقوب صروف، فارس نمر. شبلي شميل، بشارة زلزل، اسكندر بارودي. نقولا نمر. خليل سعادة وجرجي زيدان وعلى الرغم من محاولات الغرب التي جرت لايقاد لهيب القومية عن طريق بعث الوفود التبشيرية الى البلاد العربية نجد النزعة القومية العربية تبرز ويتسع نطاقها بين الجمهور كرد فعل على احتلال الاستعمار الفرنسي والبريطاني او على اضطهاد وظلم اجتماعي تمارسه الحكومات الجائرة المتظاهرة بالاسلام في حق شعوبها.

فالقومية ـ كما اشرنا ـ كانت قبل الحرب الاولى

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:34 IRDT on Monday August 31st 2020

وفترة ما بين الحربين شعوراً وحاسة لا ايديولوجية وفكرة وخير دليل على ذلك ما نجدهُ في اشعار بعض الشعراء من الدعوة الى الامة الاسلامية والخلافة العثمانية من جانب والاعتزاز بقوميتهم من جانب آخر كما جاء في شعر احمد محرم إذ يقول[١٣]:

ليس التعصب للرجال معرّة إن الكريم بقومه يتعصب

الميزات الخاصة للقومية العربية

لما أن الحكم العثماني كان يقترن بالاسلام ويدّعي سلاطين الترك انهم ورثة الخلافة العباسية والاسلام الموروث كان مقترناً مع كيان الدولة العثمانية والعروبة تسمى آنذاك الاسلام والاعتناق به، فامتزجت النزعة القومية بفكرة الوحدة الاسلامية، والجماهير ومنهم الشعراء يطالبون بحفظ حقوق العرب في ظل الامبراطورية العثمانية وبعبارة اخرى تلازمت العروبة والاسلام واقترنت السياسة بالدين وبعض المفكرين يدعون الى هذا التلازم والاقتران، منهم جمال الدين الافغاني، محمد عبده، مصطفى كامل وعبد الله نديم الذين ينظرون الى القومية بالمنظار الديني ويعتقدون بالوحدة الاسلامية تحت راية العثماني[١٤] ورأى الدكتور عمر الدقاق «أنهم كانوا من ذوي الاتجاه العثماني ويرون العثمانية والمصرية من معدن واحد هو الاسلام»[١٥].

ينبغي هنا ان نشير الى ان التلازم بين الدين والسياسة الذي قال به امثال سيد جمال الدين لا يعني ان الاستبداد السياسي اصبح يصطبغ بقداسة دينية وانما يعني ان جماهير المسلمين ليلتزموا المسؤولية نحو مصيرهم السياسي كواجب ديني.

فهكذا كانت النزعة القومية العربية قبل الحرب العالمية الاولى او قل قبل العام الدستوري ١٩٠٨م تجسدت في الوحدة الاسلامية تحت الامبراطورية العثمانية بغية التصدي للاستعمار واطماعه وسياسته التوسعية. فامتزج الشعور القومي والشعور الديني تحقيقاً لهذه البغية وشاعت النزعة العثمانية في الادب العربي وخاصة في الشعر ونرى هذه النزعة بين الشعراء الذين كانوا صادقي العقيدة العثمانية اما لتأثيرها الديني في نفوسهم او الرهبة من استبدادها او الرغبة في جرّ المنافع.

اصحاب هذا النوع من الشعور القومي كانوا في مصر التي تخلصت من الحكم العثماني قبل غيرها من البلاد. منهم احمد محرم الذي كان كشعراء الامة الاسلامية الآخرين حريصاً على دوام الصلة الدينية والسياسية مع العثمانيين، نسمعه يقول[١٦]:

يا آل عثمان من تركٍ ومن عربٍ
وأي شعبٍ يساوي الترك والعربا
صونوا الهلال وزيدوا مجده علماً
لا مجد من بعده ان ضاع أو ذهبا

ومنهم رأي الدين يكن الذي كان يكره الاستبداد، لكنه يحب الوطن وعلى قول انيس المقدسي: «هو يجمع في نفسه شدة النقمة على السلطان عبد الحميد وشدة العصبية للوطن التركي»[١٧] وهو يعبر عن وطنيته هكذا: لوطني مني حياتي وكل ما كان دونها على أن اعيش عثمانياً واموت عثمانياً»[١٨].

ومنهم محمد عبد المطلب الذي كان من الدعاة الى الامة الاسلامية يمدح عبد الحميد ويهنئه بالدستور في سنة ١٩٠٨م بقصيدة يقول في اولها[١٩]:

ياعيدُ حيِّ وانتَ خيرُ نهار
عبدَ الحميد بدولةِ الاحرار
ملكٌ اقام على الخلافةِ منهجٌ
حرَماً وقاها صولةَ الاشرار

فمشاعر العرب باستثناء المتطرفين منهم، بقيت على ولائها للدولة العثمانية بدافع العاطفة الدينية المشتركة وابتعدوا عن القيام بأية ثورة ضدها يؤكد ذلك ما قاله فؤاد الخطيب الذي اصبح بعد ذلك شاعر الثورة العربية

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:34 IRDT on Monday August 31st 2020

الكبرى التي قامت ضد حكم الآستانة هو نفسه الذي كان يخاطب الترك بقوله:[٢٠]

أإخوانَنا الاتراك مُدُّوا لنا يداً
من الودِّ إنا قد مددنا لكم يدا
وما نتقاضى ثورةً دموية
فلسنا عطاشا نطلبُ الدمَ موردا
ولكننا نرجو إخاءً موطَّداً
يعزّ علينا ان يكونَ مهددا

فتجلي هذه النزعة العثمانية ايضاً بين الشعراء المسيحيين في مصر كخليل مطران ـ الذي عدّه عمر الدقاق من فئة كانت معتدلة في شعورها القومي وتتخذ موقفاً وسطاً[٢١] واعتبره المقدسي من تابعي النزعة العثمانية[٢٢] ـ الذي يعدّ الترك فحول الحروب التي اذا خاضوها لا تنتج الا الفخر والسيادة[٢٣]:

وما التركُ الا فحولَ الحروب
رضيعو لظاها من المولد
اذا لقحوها الدماءَ فلا
نتاجَ سوى الفخر والسُؤود
سواء على المجد أيّا تكن
عواقبُ مسعاهم تُحمد

ففي هذه الفترة من الزمن كانت جمهرة الساسة المصريين ومنهم عبد الله نديم، مصطفى كامل، جمال الدين الافغاني ومحمد عبده والشعراء المصريون ومنهم محمد عبد المطلب، حافظ ابراهيم، احمد شوقي، احمد محرم وشكيب ارسلان لا يرون تنافياً بين العاطفة الدينية والعاطفة الوطنية بل كانوا يجدون في ارتباطهم الاسلامي بتركيا سلاحاً يفلون به عضد الاستعمار الاوربي[٢٤].

كان مصطفى كامل يرى «ان مظاهرة الامة المصرية نحو الدولة العلية هي مظاهرة ضد الاحتلال الانجليزي واشتراك افراد الامة على اختلافهم في الاكتتاب للجيش العثماني هو اقتراع عام ضد الانجليز في مصر»[٢٥]

فلم يكن هؤلاء الساسة يريدون ان تتقيد مصر في تركيا وانما يريدون استقلالاً تاماً لها مرتبطة بتركيا بعلاقة الاسلام لان العاطفة الاسلامية كانت متمثلة في الخلافة العثمانية.

النزعة الشرقية هي نزعة اخرى ظهرت بجانب النزعة الدينية وبرز من خلالها شعور العرب القومي والضاربون على هذا الوتر الشرقي كانوا من القائلين بوجوب الانقلاب مع المحافظة على الامة العثمانية ويعتقدون بانه لا ينجي الشرق من براثن الاستعمار الا العرش العثماني إذا قام على أُسس الحضارة الجديدة[٢٦].

ولا نجد هذه النزعة في مصر فحسب بل تجلت مظاهرها في سائر الاقطار العربية ولا سيما سوريا ولبنان والعراق.

وفي الحروب التي خاضتها تركيا قبل الدستور يعطف المسلمون عموماً على الدولة العثمانية كحرب روسيا سنة ١٨٧٨م والحرب اليونانية ١٨٩٧م وحرب طرابلس ١٩١١م وحتى في الحروب التي نشبت بين دولة شرقية ودولة اخرى ولم تكن فيها لتركيا مصلحة مباشرة. كان العالم الاسلامي بجانب الدولة الشرقية وأُثيرت العواطف الشعرية على نحو ما نرى في الحرب بين روسيا واليابان (١٩٠٤ - ١٩٠٥م) من قصيدة مشهورة لحافظ ابراهيم يمدح فيها امبراطور اليابان (الميكادو) ووطنية شعبه[٢٧]:

هكذا الميكادو قد علّمنا
ان نرى الاوطان امّاً وأبا

والجدير بالذكر انه كان من الشعراء المفكرين الذين نادوا بالاتجاه الاسلامي ممن يعارض سياسة الدولة العثمانية علنا ويقف من العثمانيين موقف المنتد ـ فلا يصح ـ كما رأى الدكتور ابو حاقة ـ «أن نعدهم عملاء للدولة العثمانية او مبوقين لسياستها لانهم كانوا يؤمنون بان مصلحة المسلمين تقتضي اتحادهم تحت

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:34 IRDT on Monday August 31st 2020

ظل الخلافة العثمانية شرط ان تقوم هذه الخلافة بالاصلاحات اللازمة»[٢٨].

فكان المفهوم القومي حتى مطلع القرن العشرين مغشياً بالنزعة الدينية حيناً او بالعروبةحيناً او بالنزعة الشرقية حيناً آخر.

وبعد العام الدستوري ١٩٠٨م وبعد ان تبين ان الدستور لم يكن الا سراباً دخلت النزعة القومية في مرحلة جديدة وهي نضال العرب ضد التبعية التركية واخذت العاطفة الدينية تتضاءل شيئاً فشيئاً. إذ انّ الاتحاديين (جمعية الاتحاد والترقي) سعوا الى تتريك الدولة العثمانية وجمع الشعوب في ظلّ البوتقة الطورانية[٢٩].

و«ارادوا من وراء خطة احكموا تدبيرها الفتك برجال العرب ومفكريهم وهي خطة اختيار جمال باشا القائد العام في بلاد العرب ـ وهو المعروف بشدة الشكيمة والميل الى سفك الدماء ـ تنفيذاً لسياسة التتريك وانشاء امبراطورية تحيى مجد جنكيزخان وتيمورلنك»[٣٠].

فأخذ العرب و ـ منهم الشعراء ـ يقابلون سياسة العثمانيين ويندون باستبدادهم ويقطعون ذلك الخيط المشترك الذي كان يشدهم الى الترك و«أخذ التفكير القومي عند العرب يتجه نحو التبلور فيمواقف سياسية بارزة كالمؤتمر العربي في باريس ١٩١٣م واتصالات شريف حسين بالدولة البريطانية وترشيحه لخلافة المسلمين في دولة عربية موحدة مستقلة والنضال ضد السلطنة العثمانية ومظالمها وطغيانها مما نشأ عنه اعدام جماعة من الشهداء اللبنانين والسوريين على يدي جمال باشا الوالي العثماني الذي تولى الاحكام العرفية في اثناء الحرب العالمية الاولى[٣١]».

ان فضائع جمال باشا اثارت مشاعر الشعراء لا في سوريا ولبنان فحسب بل في سائر البلاد العربية، فنرى جميل صدقي الزهاوي الشاعر العراقي يصور في قصيدته (النائحة) بطولة هؤلاء الشهداء ويشيد ببسالتهم[٣٢]:

دنّسوا فرّقوها واحدا بعد واحد
وقالوا وجيزا ليس فيه فضول
فمن سابق كيلا يقال محاذرٌ
ومستعجلٍ كيلا يقال كسول
وهل (للعريسيّ) الجريء (وعارفٍ)
اذا عُد اقطاب اليراع عديل[٣٣]

ومن مناوئي السياسة العثمانية وعلى الاخص عبد الحميد ومن أبرز حاملي هذه المناوأة سليم سركيس صاحب جريدة «المشير» الذي يقول في احدى قصائده[٣٤]:

نرجو صلاح الترك قد
خابت أمانينا الكواذب
هي دولة ظلمتْ وليـ
ـس العدلُ عن ظلم بذاهب
فانشدْ معي قولاً تُردّ
ده المشارقُ والمغارب
ليس العجيبة فقدُها
بل عيشُها احدى العجائب

ومثل سركيس كثيرون ممن كرهوا الادارة التركية وعدّهم المقدسي والبقاعي من المناوئين للعثمانيين[٣٥]. أما الرصافي والزهاوي وولي الدين يكن ومطران وعبد الحميد الرافعي فكانوا من حملة لواء الاعتدال الى جانب النقمة على عبد الحميد بظلاماته واستبداده وقد عبّر عن ذلك ولي الدين يكن الذي كان في طليعة الثائرين على الاستبداد مصوّراً حالة العرب آنذاك بقوله[٣٦]:

صحا كلّ شعب استردّ حقوقه
فياليت يصحو شعبُك المتناوم
هو الشعب أفنى دهره وهو خادم
وليس له فيمن تولّود خادم

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:34 IRDT on Monday August 31st 2020

يقلّب من عهد لعهد على الاذى
اذا زال عنه غاشم جدّ غاشم

والشاعر نفسه هو الذي يخاطب عبد الحميد ساخراً[٣٧]:

تجودُ بالعفو لكن لستَ تضمره
كما يجود مريضُ الموتِ بالمال
ماذا يؤمّل مَن آتيك ذو أملٍ
وأنت ماضيك لا يلتامُ بالحال

لمّا خُلِعَ عبد الحميد سنة ١٩٠٩م هلل الرصافي كما هلل سواه من الشعراء ومن تهليله في شعره قصيدة (تموز الحرية) و(وقفة على يلدز). ففي الاولى يلتفت نحو شهر تموز ويمدحه ويعتبره شهراً أصبح الناس فيه محررين وكانوا يعيشون في ظل خلافة السلطان عمياناً دون عكاز يعمهم الجور والظلم[٣٨]:

أكرم بتموزَ شهراً إنّ عاشره
قد كان للشرق تكريماً وتعزيزا
شهرٌ به الناس قد اضحت محررةً
من رقّ من كان يقفو اثر جنكيزا
.....
.....
كُنّا من الجور عمياناً وليس لنا
من قائدين ولم نملك عكاكيزا
حتى نهضنا الى العلياء تُقدِّمنا
عصابةٌ برزت في المجد تبريزا

وفي هذه الاخيرة التي قالها عقب خلع عبد الحميد وارساله الى سلانيك سجيناً، يذكر فيها فساد الحكومة ومنكراتها وما كان يجري في عهد السلطان من المظالم الرهيبة مخاطباً قصره[٣٩]:

قد تخوّنتنا ثلاثين عاماً
جئتَ فيها لنا بكل محال[٤٠]
اسمعُ الآن فيك ما كان يعلو
من أنين لها ومن إعوال[٤١]
كيف ننسى تلك الخطوب اللواتي
لَقحتْ منك حربها عن حيال[٤٢]
يومَ كُنا وكان للجهل حكمٌ
خاذلٌ كل عالم مفضال
أفأصبحتَ نادماً ايها القصـ
ـرُ تبالي بالقوم أم لا تبالي؟

ثم يدعو الملوك من امثال عبد الحميد الى الاعتبار من سقوطه:

ليس عبدُ الحميد فرداً ولكن
كم لعبد الحميد من أمثال
فاتركوا الناس مطلَقين والاّ
عِشتم موثقينَ بالاوجال
هل جنيتم من التجبرِّ الاّ
كلُّ إثمْ عليكم وَوَبالِ

فعلى اثر اعلان الدستور العثماني وبعد ان هبت على العرب نسمات الحرية، عادت الثقة الى نفوسهم فأخذوا يصيحون ويعلنون سخطهم وتذمرهم ويدعون الى النهوض في سبيل انتزاع حقوقهم وحفظ وطنهم ووضعوا فاصلاً بين الدين والسياسة وفصلوا حساب الامة الاسلامية عن حساب السياسة وبقيام الحرب العالمية الاولى وما يتبعها من الاحداث واعلان الحماية الانكليزية يدخل نضال العرب مرحلة جديدة حاسمة تقتضي طرح العامل الديني جانباً والاعتماد على العنصر القومي وحده في حين استدعى الامر في مصر الاعتماد على العامل الديني باعتباره عنصراً فعالاً في مقاومة الاحتلال الانكليزي[٤٣] «وبعد فترة اعقبت الحرب العالمية الاولى ـ بخاصة في مصر ولبنان ـ تجلت في الشعر القومي نزعات وطنية محلية اتسمت بالحرص على ابراز كيان خاص بها فاصبحت الامة الاسلامية والرابطة الشرقية والنزعات الوطنية والعاطفة الانسانية تخدم التيار القومي واكسبته قوة وتدفعاً ومضاء»[٤٤].

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:34 IRDT on Monday August 31st 2020

كان شبلي شميل (١٩١٧ ـ ١٨٥٠م) من الدعاة الى الاصلاح ويرى انفصال الدين عن السياسة من الطرق المؤدية اليه. اذ انّ علماء الدين او القسان في التاريخ كانوا يستغلون قدرتهم ولهذا يختلف رأيه عن رأي بعض القوميين المصريين الذين يرون الدعم للسلطان العثماني وتعزيز اركان سلطته ضرورياً لمكافحة الانجليز والمقاومة امام سيطرته[٤٥].

وكان علي عبد الرزاق من أبرز مؤيدي انفصال الدين عن السياسة ويعتقد بأنّ المسلمين ليحذّروا ارباب الدين عن التدخل في السياسة[٤٦].

وكان الكواكبي يؤكد على اتحاد العرب على الجنس لا على الدين وهذا رأي ينادي لفصل الدين عن السياسة وهو يعتقد كعبد الرزاق بعدم تدخل اصحاب الخلافة في الامور السياسية[٤٧] والجدير بالذكر أنّ الاعتقاد بانفصال الدين عن السياسة كان قد يؤدي الى العلمانية (Secularism) وهذه ميزة تمتاز بها القومية العربية في فترة ما بين الحربين والظروف كانت تقتضي طرح العامل الديني جانباً والاعتماد على العنصر القومي وحده لانه:

اولاً: كانت الصهيونية تريد التفرقة بين المسلمين والمسيحيين في فلسطين وتحاول بث الخلاف بين الفريقين.

ثانياً: كانت فرنسا تثير دائماً فكرة الاقليات المسيحية لعرقلة الوحدة العربية وثالثاً: اشمئز المسلمون من استغلال العثمانيين الذين كانوا يرتكبون كلّ جريرة في ظل راية الاسلام ويبررونه باسم الاسلام[٤٨].

«فاذا قلنا انّ القومية العربية كانت علمانية فليس معنى ذلك أنها تنكرت للديانات وبخاصة للمسيحية والاسلام وانما معناه أنها لم تكن منتمية الى دين»[٤٩].

ومن ميزاتها الخاصة الاخرى بعد الحرب العالمية الاولى، أنها كانت تناوئ السياستين الفرنسية والبريطانية في البلاد العربية لما فيهما من اخلاف الوعود أثناء الحرب الاولى خاصة من قبل بريطانيا ولذلك ـ كما سبق ذكره ـ لم تكون ايديولوجيا بل ـ كما قال ابو حاقة ـ:«نهضت على اسس ثقافية ولم تنهض على اسس عرقية كما حدث في اوربا ولم تكن معادية لاحد ولم تكن كالنازية او كالفاشية تهدف الى الاستيلاء على سواها وانما كانت تقاوم الاستعمار وتسعى الى الاستقلال والى الاسهام في الحضارة الانسانية»[٥٠].

موضوعات القومية في الشعر الحديث

قد تبين لنا من خلال دراسة الاشعار القومية في الفترة التي يدور البحث حولها أنها كانت تنطوي على موضوعات ترتبط بواقع العرب وحياتهم السياسية من مثل ما نادى به الشعراء من التمسك بالعربية والاعتزاز بالاصل، الاعتزاز باللغة العربية والفخر بالوطن وتكريم الشهداء والوطنيين وتخليد ذكراهم ومناضلة الاستعمار والتنديد بالمحتلين والدعوة الى الوحدة.

نقوم هنا ببسط بعض هذه الموضوعات:

أ ـ التمسك بالعربية والاعتزاز بالاصل:

انّ العرب اشد الامم تمسكاً بالنسب واعتزازاً بالاصل وكانت هذ الظاهرة قد اتصلت بحياة العرب منذ عصور ماضية وظهرت في الادب العربي وانبثقت بانبثاق النهضة الادبية بشكل جديد فحاول الشعراء ان يعبروا عن عواطفهم نحو انسابهم ويفخروا بعروبتهم. حيث نجد بعض الشعراء المعاصرين يحذون حذو القدماء في الفخر بواسطة النسب الحقيقي منهم محمد عبد المطلب الشاعر المصري الذي يعتز بنسبه الذي يرجعه الى «جهينة»[٥١] قائلاً[٥٢]:

أنا ابنُ الصِّيدِ مَن انكرَني
ينكر الليثَ اذا ما انتسبا[٥٣]

مِن أبيّين كرامٍ ضربوا
فوق هامات المعالي قُببا[٥٤]

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:34 IRDT on Monday August 31st 2020

وكفاني مِن فخاري نسبةً
جمعتْ في طرفيها العربا

والشاعر العراقي الشيخ بهجة الاثري اشار الى انتساب العرب الى قحطان انتساب الترك الى جنكيزخان[٥٥]:

ومن كان قحطانٌ أباه فانه
«له الصّدر دون العالمين او القبر»

سلام على تلك الشمائل! انّها
عبير... نمى في الخافقين له نشر[٥٦]

ومن مبلغٌ صُهبِ العَثانينَ أنهم
على سفر، لايستتبُّ لهم أمر[٥٧]

وأن (بني قحطان) ساداتُ نفسِهم
وموطنهم حرّ وملكهمُ حرّ

ومن هذا القبيل ما نجده في شعر احمد الصافي النجفي الذي يفخر بعروبته ونسبه ووحدة الاصل[٥٨]:

أنا عربي وحسبي بذا
جواباً يعظمه سائلي

فآبائي الصّيد من هاشم
وأخوالي الغرّ من (عامل)[٥٩]

وبما أنّ الاستعمار كان يريد غرس بذور الخلاف بين المسلمين والمسيحيين ويحاول ايهام المسيحيين في لبنان بانهم ليسوا من العرب فنجد الشعراء المسيحيين في طليعة المعتزين بالعروبة منهم رشيد سليم الخوري (الملقب بالشاعر القروي) الذي على مسيحيته يرى خير ذخر العرب عند اعلام الاسلام والانتساب اليهم اشرف انتساب[٦٠]:

أنريد اعظم من أبي بكرٍ ومن
عمرٍ اذا انتسب الكرامُ ومن علي

أتجف أوراقُ العروبة في ربى
لبنانَ وهي نضيرة في «يذبل»

مثل هذه المفاهيم القومية ايضاً في قصيدة للشاعر اليمني محمد محمود الزبيري قالها بمناسبة اجتماع ممثلي الدول العربية في لبنان ويؤكد فيها ان العروبة كالجسد الواحد[٦١]:

انّ العروبة جسم ان يئنّ به
عضو تداعت له الاعضاء تنتقمُ

ان يضطهد بعضُه فالكل مضطَهدُ
او يهتضِم جزؤه فالكل مهتضمُ

انّ حافظ ابراهيم يشير في قصيدة له الى عروبته ويفخر بها ويرى كالزبيري أنّ كل اقطار العالم العربي يساوي في المجد والنسب كالجسم الواحد[٦٢]:

لمصرٍ أم لربوع الشام تنتسب
هنا العلا وهناك المجد والحسب[٦٣]

ركنان للشرق لازالت ربوعهما
قلبُ الهلال عليها خافق يجب[٦٤]

امّ اللغات غداةَ الفجر أمهما
وان سألتَ عن الآباء فالعرب[٦٥]

ابراهيم اليازجي ايضاً يذكّر بعزّ العرب ومجدهم قائلاً[٦٦]:

وما العربُ الكرامُ سوى نصال
لها في أجفن العليا مَقامُ

لعمرك نحن مصدرُ كل فضلٍ
وعن آثارنا أخذَ الانامُ

ونحن أولو المآثرِ من قديم
وإن جحدت مآثرنا اللئام

ولسنا القانعين بكل هذا
وليس لنا بعروته اعتصامُ

ولكنا سنجهد للمعالي
الى أن يستقيمَ لنا قوامُ

سلامٌ ايها العرب الكرام
وجادَ ربوعَ قطرِكم الغَمام

كان بعض الشعراء يجدون في مراثيهم للزعماء العرب مجالاً فسيحاً للتعبير عن حبهم لوطنهم منهم

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:34 IRDT on Monday August 31st 2020

بشارة الخوري (الملقب بالاخطل الصغير) الذي تلمس الروحية العربية فيه خلال مرثاته للملك فيصل الاول وفيها يصف صدق عروبة لبنان قائلاً:[٦٧]

وسفحنا في دجلة قلب لبنان
واجفانه الهوامي الهوائم
عربي النّجار شدّ عراه
باللوائين عبد شمسٍ وهاشم
خذ بهمس القلوب في أذن الحبّ
ودعْ عنك كاذباتِ المزاعم

وكان الشعراء المهجريون الذين يحنون الى اوطانهم قد يبينون شغفهم ببلادهم من خلال حنينهم، فهذا ايليا ابو ماضي الشاعر المهجري يعبر عن وطنيته في قصيدة (وطن النجوم) هكذا:[٦٨]

وطن النجوم أنا هُنا
حدِّق أتذكر مَن أنا
انا ذلك الولد الذي
دنياه كانت هيهنا
أنا من مياهك قطرة
فاضت جداول من سنا
.....
.....
لكنه مهما سلا
هيهات يسلوا الوطنا

وكان بعض الشعراء ينظرون الى القومية بالمنظار الوطني وحبّ الوطن. منهم الشاعر السوداني محمد سعيد العباسي وهو يرفض دعوة القومية اصلاً باعتبارها دعوة استعمارية وينظر الى هذه الدعوة في شيء كثير من الشك والارتياب. يخاطب اصحاب هذه الدعوة ويقول:[٦٩]

وماتريدون من قومية هي في
رأيي السراب على القيعان رقراقا
طلبتم الغرض الاسمى بتسمية
كأن بالاسم تحريراً واعتاقا
لقب أو اسم أقام الغافلون له
سوقاً فأنشأت الاغرض أسواقا
وماارادوا يمين الله إذ وضعوا
جمع الشتات ولا للحق احقاقا
لاتخدَعوا إنّ في طيات ما ابتكروا
معنىً بغيضاً وتشتيتاً وارهاقا
ليصبح النيل افكاراً موزعّة
وساكنو النيل اشياعاً واذواقا

فالسودان في شعر العباسي يكون مرادفاً للوطنية فلا ينبغي ـ في رأيه ـ الحديث عن السودان الا في اطار وحدة وادي النيل، حتى يكون للوطنية معنى وسبيل وتكون الوطنية والقومية والسودان ومصر في شعر العباسي مترادفات لمعنى واحد[٧٠].

وهكذا اصبح الاعتزاز بالوطن والعروبة احدى مقومات القومية التي كان الشعراء يتمسكون بها ويلحون عليها لابراز كيانهم العربي امام ما يحاول الاستعمار من تضعيف العرب.

ب ـ الاعتزاز بلغة الضاد

انّ القاسم المشترك بين الامة العربية لغتها قبل أن يكون عقيدتها الدينية فانّ أمماً عديدة ـ من الترك والفرس والهنود و... ـ اعتنقت الاسلام. فالبلاد التي تتكلم اللغة العربية عندها عنصران لتعزيز قوميتها: عنصر اللغة وعنصر الدين. وبما ان بعض العرب معتنقون المسيحية فاللغة اقوى عنصر يربط بعضها ببعض وهذا امر جعل بعض اصحاب الآراء ـ كعبد الله نديم ـ يعتبر اللغة رأس مقومات الامة واكبر أركان الشعور الوطني ويعتقد ان اكثر منهج تأثيراً في تصعيد الحاسة القومية هو تأسيس المدارس لتعليم اللغة العربية على منهج صحيح[٧١] ومن هنا كانت هي السمة الاولى التي تميز بها جميع العرب مسلمين ومسيحيين

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:34 IRDT on Monday August 31st 2020

من سائر الامم[٧٢]. اما العنصران اللغوي والديني عند العرب فلا ينفصل احدهما عن الآخر لانّ الرسول (ص) كان عربياً وظهر الاسلام بين العرب وانتشر الى العالم بلسانهم. فاللغة العربية كانت لاتزال موضع تقديس المسلمين على اختلاف قومياتهم. لكن العرب تمسكت واحتفظت بها مقاومةً امام حرب شنها الاستعمار لمحاربة اللغة القومية وفرض لغته على الامم المستعمرة. فالتفاخر باللغة العربية وعظمتها والتغني ببلاغتها وفصاحتها اصبح سمة بارزة للاشعار التي نظمت حول هذه اللغة. منها ما نظمه حافظ ابراهيم من قصيدة «اللغة العربية» ويتحدث بلسانها[٧٣]:

أنا البحر في احشائه الدرّ كامن
فهل سألوا الغواصَ عن صدفاتي

ومنها ما قاله امير الشعراء معبراً فيه عن جمال خصّ الله به لغة الضاد[٧٤]:

ان الذي ملأ اللغاتِ محاسناً
جعل الجمالَ وسرَّه في الضاد

فظاهرة الاعتزاز بلغة العرب كانت مظهراً بارزاً للاعتزاز بالعروبة باعتبار هذه اللغة اساساً لمقوماتها.

فإذا ألمت بها ازمة ـ كالدعوة الى استبدال اللاتينية بها ـ قام الشعراء للدفاع عنها كمصطفى صادق الرافعي الذي نظم قصيدة وعد فيها اللغة العربية أمّا تركت للاجيال الناشئة مآثر ومفاخر، لكنهم يكيدون لها[٧٥]:

أمّ يكيد لها من نسلها العَقبُ
ولانقيصةَ الا ما جنى النسب
كانت لهم نسباً في كل مكرمةٍ
وهم لنكبتها من دهرها سبب

ومن سوء الحظ هوجمت اللغة العربية من جانبين: جانب الاستعمار وجانب الاتراك، فالعرب تحاول للاحتفاظ بلغتها رداً على تنديد الاتحاديين (جمعية الاتحاد والترقي) من جهة والمحتلين من جهة أخرى. فهذا عبد الحميد الرافعي يرد على سياسة الاتحاديين في تحقير اللغة العربية، مبيناً فضلها ورفعة شأنها، يقول[٧٦]:

لغة بفضل جمالها وجلالها
شهدت شواهد محكم القرآن
لغة اذا ادركتَ سحْر بيانها
ادركتَ معنى السحر في الأجفان

ثم يعاتب المنصرفين الى اللغات الاجنبية قائلاً:

كلُّ اللغات لديكِ يا لغةَ الهدى
خدم وأنت مليكةُ الايوان
ظلموكِ اهلكِ بالجفاء فاصبحوا
والكل يمشي مشية السرطان
لم يحفظوا لك ذمة وتعلقوا
بهوى السّوى ورموك بالهجران
لكنهم غُرروا بغيرك حِقبة
من دهرهم والدهر ذو ألوان

والجدير بالذكر أن رجال الوطنية ومنهم الادباء والشعراء كانوا متحمسين للغة الفصحى ويذودون عنها وكل شيء يدعو الى الحملة ضدها يثير سخطهم. على سبيل المثال نشر عيسى اسكندر المعلوف عام ١٩٠٢م مقالاً في الهلال عدد مارس أبان فيه جهوده في ضبط اللهجات العامية وتعقيدها كما دعا الصحف الى استخدامها[٧٧]. قوبلت هذه الحملة بحملة أشد منها وقد اسهم الشعراء فيها، منهم حافظ ابراهيم الذي نظم قصيدته المشهورة «اللغة العربية» سنة ١٩٠٣م يدافع بها عن انصار الفصحى قائلاً على لسان اللغة[٧٨]:

رجعتُ لنفسي فاتهمتُ حصاتي
ونادیت قومي فاحتسبتُ حياتي[٧٩]
رموني بعُقم في الشباب وليتني
عُقمتُ فلم أجزعْ لقول عداتي[٨٠]
ولدتُ ولما لم أجد لعرائسي
رجالاً واكفاءً وأدتُ بناتي[٨١]
وسعتُ كتابَ الله لفظاً وغايةً
وما ضِقتُ عن آي به وعظات

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:34 IRDT on Monday August 31st 2020

فكيف أضيق اليومَ عن وصف آلة
وتنسيقِ أسماءٍ لمخترعات

ثم يعرب كالرافعي عن اسفه وقلقه لانصراف البعض عن الفصحى الى لغة لا اصل لها ولم يأخذها الخلف عن السلف بطريق الرواية التي تحفظها من التغيير كما هو الشأن في العربية مشيراً الى تلك اللغة المرقعة التي كانت مستعملة آنذاك:

أيهجرني قومي ـ عفاك الله عنهم ـ
الى لغةٍ لم تتصل برواة
سرت لوثة الافرنج فيها كما سرى
لعاب الافاعي في مسيل فرات[٨٢]

عبد الله البنا أيضاً في قصيدته (ذكرى اللغة العربية) يصور آثار صراع دار بين حماة الفصحى القوميين والداعين الى اللغة العامية قائلاً[٨٣]:

أمّ اللغات عويلي غير منقطع
حتى أرى الدهر عبداً من رعاياكِ
حتى ارى لكِ داراً لا تضام ولا
تطلّ الا على مجد ثرياك[٨٤]
حتى ارى لكِ حظاً في الحياة وان
طال الرّقاد على انقاض موتاك
حتى ارى لك ابواباً مفتحة
لطالبي العلم تشفي داء مرضاك

عبد الله عبد الرحمن الشاعر السوداني يشير ايضاً الى التآمر على الفصحى مبيناً دورها الخطير في حياة الامة العربية يقول[٨٥]:

بني وطني ان قمتُ للضاد داعياً
فاني أدعو للتي هي أقوم
لقد وثّق الله الروابط بيننا
فلا تنتقِضوا بالله ما الله مبرم
ارى الضاد في السودان أمست غريبة
وابناؤها أمست لي تتجهم[٨٦]
ونبئت في السودان قوماً تآمروا
على اللغة الفصحى أساءوا وأجرموا
وبالادب القومي قالوا سفاهة
وما لمحوا حقاً ولكن توهموا

ابيات هذا الشاعر السوداني وابيات اخرى تدلنا على انّ الشعراء لم يدافعوا عن اللغة العربية لكونها لغة القرآن فحسب بل يتجاوز ذلك الى كونها اقوى رابطة تشد العرب بعضهم الى بعض. فاذا تحولت الفصحى الى لغة اخرى او استبدلت العامية بها فهذا يعني انهيار المجتمع العربي وفقد الاواصر المتينة بين افراده. لهذا نرى خليل مردم بك ندب في قصيدة (واعربيتاه) هذه اللغة بلوعة واسى قائلاً[٨٧]:

هجروا من الكلم الصحاح سِخافة
واستبدلوا بعِرابها أعلاجها[٨٨]
لم يتركوها بعد ذاك وشأنَها
بل أجهزوا كي يطفئوا وهّاجها
واهاً لآساد فمنذ ثكلتهمُ
قصرت يدي عن أن تذود نعاجها

ولهذا ايضاً نجد الشاعر المهجري رشيد سليم الخوري (الملقب بالقروي) يحس بالغربة ولا تسليه الجموع الغفيرة حوله لانه لا يسمع منها أنغام لغته، لغة الام والاهل[٨٩]:

حولي أعاجم يرطنون فما
للضّاد عند لسانهم قدر[٩٠]
لو عاش بينهم ابن ساعدة
لقضى ولم يُسمع له ذكر[٩١]
ناس ولكن لا أنيس بهم
ومدينة لكنها قفْر

وإذا نظر بعض الشعراء الى اللغة العربية بالمنظارين الديني والقومي، فكان هناك شعراء ـ واكثرهم من المسيحيين طبعاً ـ ينظرون اليها بالمنظار القومي فقط، لانهم وجدوها قاسماً مشتركاً بينهم وبين المسلمين.

كل هذه الابيات تنم عن الشعور القومي للشعراء امام اللغة العربية واجلالهم لها واعتبارهم أياها عُرى الوحدة بين العرب على اختلاف عقائدهم.

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:34 IRDT on Monday August 31st 2020

ج ـ تكريم الشهداء والوطنيين وتخليد ذكراهم

إذا كانت البطولة والتضحية من صفات تخلد المضحين والشهداء فمن الطبيعي انّ ذكر هذه البطولات يهزه شاعر الشعب القومي ويستفزهم للانتفاضة والنهضة. والشعراء ادركوا هذا الامر أحسن ادراك ومن هنا لم يكد يخلو ديوان شعر من قصائد تمجد بطولات الشهداء وتخلد ذكراهم. وبما ان سقوط الشهداء في ساحات الجهاد أو ارتحال زعيم وطني يهز مشاعر الامة القومية، فكان الشعراء بمراثيهم لهؤلاء الشهداء والوطنيين فتحوا مجالاً آخر للنهضة واستنهاض همم الشعب.

فكما نرى انّ الثورة العربية الكبرى اندلعت بعد استشهاد اولئك الاحرار (شهداء أيار) وشنقهم على الاعواد بيد جمال باشا بنحو شهر واحد[٩٢].

ومن الشعراء الذين أعادوا ذكريات تلك الايام ووصفوا المشانق وذكروا الشهداء، الشاعر العراقي جميل صدقي الزهاوي الذي يقول في قصيدته «النائحة»[٩٣]:

على كل عودٍ صاحبٌ وخليل
وفي كل بيت رنةٌ وعويلُ
وهل (للعريسي) الجريء و(عارف)
اذا عُدّ اقطابُ اليراع عديل؟
تمثل فوق العود قيل وفاته
ببيت يؤسي الشعب وهو يقول
اذا مات منا سيد قام سيدٌ
قؤول بما قال الكرام فعول

ومنهم ايضاً ابو الفضل الوليد يبكي على الشهداء في المهجر:[٩٤]

بلاد الشام غادرك الكرام
فعيش الحرّ فيك اذن حرام
لقد كثُرت من العرب الضحايا
ولم يهتز في الغمد الحسام

ثم يخاطب الشهداء ويصف شجاعتهم لدى الموت:

ايا صحبي الكرام ألافِداكمُ
لئامٌ بعد ما قلّ الكرامُ
مشيتم باسلينَ الى المنايا
وكان لكم على النُطع ابتسامُ
ليحْيَ العرب قد صِحتم ومتّم
فصيحتكم لخُطّتكم دوام
فنحن لدى بسالتكم حيارى
وانتم فوق ذلتنا عظام
على اعوادٍ مرقيّة رفعتُم
مناراتٍ بها يُهدى الانامُ

ثم يختم قوله بالحكمة التالية:

وربّ ضحية أحيت شعوباً
فكان لها انعِتاق واقتحام

اما يوسف العظمة وزير الحربية السورية في عهد الملك فيصل الاول وقائد المدافعين عن دمشق ضد جيش (غورو) الفرنسي والذي استشهد في معركة «ميسلون» واصبح بطلاً خالداً ورائداً للشهداء في ساحة الجهاد فقد اشاد خليل مردم بك الشاعر السوري بشجاعته وتضحيته في قصيدة مسماة «ذكرى يوسف» ويدافع عن موقفه ضد الاحتلال الفرنسي[٩٥]:

بنا على يوسفٍ اذ حُمّ مصرعُه
أحزانُ (يعقوب) من خافٍ ومن باد
هوى وحلّته حمراء من دمه
كالشمس حين هوت في ثوبها الجادي
فدّى العروبة بالنفس التي كرمت
يا رحمة الله للمفدىّ والفادي

وأثار استشهاد الشيخ مهدي الخالصي احد قادة الثورة العراقية ضد الانكليز عام ١٩٢٠م قرائح الشعراء وجعلهم يصفون بطولته. منهم محمد مهدي الجواهري الشاعر الشيعي العراقي الذي يعتبر هذا الشهيد سراجا وكوكباً سطع في غياهب البلاد[٩٦]:

قومي ألبسي بغداد ثوب الاسى
انّ الذي ترجينه غيبا

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:34 IRDT on Monday August 31st 2020

إن الذي كان سراج الحِمى
يشعُّ في غَيهَبِه كوكبا
قصر من ايامه همُّه
ان يُنقذ الموطن والمذهبا

وكان عمر المختار شيخ السنوسيين ورأس المجاهدين في طرابلس، ظل يقاتل الطليان في سبيل الذود عن وطنه، حتى قبضوا عليه وأعدموه شنقاً عام ١٩٣١م يرثيه احمد شوقي في قصيدة ويشيد ببسالته ويعتبرهُ مناراً هادياً للشعوب[٩٧]:

ركزوا رفاتك في الرمال لواءَ
يَستنهضُ الوادي صباح مساء[٩٨]
يا ويحهم نصبوا مناراً من دم
يوحي الى جيلِ الغدِّ البغضاء
جَرح يصيح على المدى وضحية
تتلمّس الحريةَ الحمراء[٩٩]

انّ المراثي واشعار البطولة لم تقتصر على الشهداء وابطال ساحات القتال وانما كانت في نطاق الزعماء والقادة الوطنيين امثال سيد جمال الدين الافغاني وسعد زغلول ومصطفى كامل وغيرهم واذا استشففنا دواوين الشعراء نجد كثيراً من الاشعار البطولية في هؤلاء القادة يتطلب مجالاً واسعاً غير هذا المجال. الا أننا نجتزئ ابياتاً للجواهري في جمال الدين، مخاطباً اياه وهو يقول[١٠٠]:

هويتَ لنصرة الحق السهادا
فلولا الموت لم تُطقِ الرقادا[١٠١]
ولولا الموتُ لم تترك جهاداً
فَلَلْتَ به الطغاة ولا جلادا[١٠٢]
جمالَ الدين، ياروحاً عليّا
تنزّل بالرسالة ثم عادا
وانت ازددت من سمّ زُعافٍ
تذوّقُه سواك فما استزادا[١٠٣]
نضالَ المستبد يرى انكشافاً
عمايته وعثرته سداداً[١٠٤]

نقتطف ابياتاً اخرى لحافظ ابراهيم في رثاء مصطفى كامل زعيم الحزب الوطني يجده ساهراً مازال يدوّى صوته في الاسماع ويدعو الشعب الى الاتحاد والوحدة[١٠٥]:

أيا قبرُ هذا الضيف آمال أمة
فكبّر وهلّل والق ضيفك جاثيا[١٠٦]
عزيزٌ علينا أن نرى فيك (مصطفى)
شهيدَ العلا في زهرة العمر ذاويا[١٠٧]
ولكن فقدنا كلّ شيء بفقده
وهيهات ان يأتي به الدهرُ ثانيا
وكنا نياماً حينما كنتَ ساهراً
فأسهدتنا حزناً وأمسيت غافيا[١٠٨]
شهيدَ العلا، لازال صوتك بيننا
يرنّ كما قد كان بالأمس داويا[١٠٩]
يناشدُنا بالله ألاّ تفرّقوا
وكونوا رجالاً لاتسرّوا الاعاديا

وهكذا أوقدت الاشعار البطولية لهيب الروح القومية في الشعب واستزادت روح المقاومة سواء كانت الاشعار في بطل سقط في ساحة الجهاد او زعيم مات على فراشه وكان له في حياته اثر كبير في حياة شعبه ولهذا كثرت قصائد الرثاء لدى الشعراء المعاصرين ذوي النزعة الاجتماعية منهم حافظ ابراهيم الذي اعترف بذلك قائلاً:

اذا تصفحت ديواني لتقرأه
وجدت شعر المراثي نصف ديواني

ولئلا يطول بنا الامر نكتفي بهذا معترفين بانّ للشعراء مواقف بارزة في مواضيع أخر كالدعوة الى الوحدة او مقارعة الاستعمار او... يتطلب كل واحد منها مجالاً واسعاً آخر.

وفي الختام نؤكد على حقيقة مضت وهي أنّ القومية كانت بين العرب في الفترة التي تناولها البحث حاسة وشعوراً بينما كانت في اوربا ايدئولوجية ونضيف الى ذلك ان القومية في فترة اعقبت الحرب العالمية الثانية

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:34 IRDT on Monday August 31st 2020

اصبحت ايديولوجية لما كان حاكماً على العرب من الظروف السياسية والمناخ الفكري والاجتماعي خاصة بعد ظهور حزب البعث وجمال عبد الناصر والقومية في هذه الفترة لها ميزات خاصة تحتاج الى دراسة اوسع ومقال آخر.

الهوامش

١ـ علي محمد نقوي / اسلام وملى گرايى، دفتر نشر فرهنگ اسلامى، زمستان ١٣٦٠، ص ١٤.

٢ـ نفس المصدر، ص ١٢.

٣ـ فؤاد أفرام البستاني. المجاني الحديثة، الطبعة الثالثة، ج ١، ص ١٤٤.

٤ـ عمر الدقاق / الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث، دار الشرق العربي / الطبعة الجديدة ١٩٨٥ / ص ٤٥٣.

٥ـ گالن جى باركلى / ناسيوناليسم قرن بيستم / ترجمه يونس شكر خواه، تهران، نشر سفير، ١٣٦٩ / ص ٣.

٦ـ جورج انطونيوس / يقظة العرب / ترجمة ناصر الدين أسد واحسان عباس / دار العلم للملايين / بيروت / الطبعة الرابعة / ١٩٧٤ / ص ٧١

٧ـ نفس المصدر / ١٢٠.

٨ـ ديوان ابراهيم اليازجي / ٢٥.

٩ـ عمر الدقاق / الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث / ص ١٩.

١٠ـ نفس المصدر / ص ٢١.

١١ـ انظر جورج انطونيوس / يقظة العرب / ص ١٦ وحميد عنايت / سيرى در انديشه سياسى عرب / مؤسسه انتشارات امير كبير / تهران / چاپ چهارم / ص ١٣٧٠.

١٢ـ ضياء الدين احمد / نگاهى بر جنبش ناسيوناليسم عرب / ترجمة حيدر بوذرجمهر / وزارة ارشاد اسلامى / تهران ١٣٦٥.

١٣ـ عمر الدسوقي / في الادب الحديث، دار الفكر، الطبعة السابعة، ١٩٧٣ / ج ٢ / ص ١٥٦.

١٤ـ انظر انيس المقدسي / الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث دار العلم للملايين / بيروت / الطبعة الخامسة / ١٩٧٣ / ص ٢١.

١٥ـ عمر الدقاق / الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث / ص ٣٩.

١٦ـ نفس المصدر ص ٤٠.

١٧ـ انيس المقدسي / الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث / ص ٢٤.

١٨ـ المصدر نفسه / ٢٤.

١٩ـ احمد عبد الله فرهود / تاريخ شعراء العربية / دار القلم العربي / الطبعة الاولى / ١٩٩٨ / جزء ١٣ / ص ٥.

٢٠ـ عمر الدقاق / الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث / ص ٣١.

٢١ـ نفس المصدر / ص ٣٤.

٢٢ـ انيس المقدسي / الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث / ص ٢٢.

٢٣ـ ديوان خليل مطران / دارمارون عبود / بيروت / ج ١ / ص ١٥٤.

٢٤ـ انظر احمد محمد الحوفي / وطنية شوقي / الهيئة المصرية العالمة للكتاب / الطبعة الرابعة / ١٩٧٨ / ص ٤٣٧.

٢٥ـ المؤيد ٩ يونية ١٨٩٧ منقول عن احمد محمد الحوفي / وطنية شوقي / ص ٤٤٢.

٢٦ـ انيس المقدسي / الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث / ص ٣٦.

٢٧ـ ديوان حافظ ابراهيم / ج ٢ / ص ٧.

٢٨ـ احمد ابو حاقة / الالتزام في الشعر العربي / دار العلم للملايين / الطبعة الاولى / ١٩٧٩ / ص ١٤٧.

٢٩ـ جورج انطونيوس / يقظة العرب / ص ١٦.

٣٠ـ انظر امين سعيد / الثورة العربية الكبرى / مكتبة مدبولي / ج ١ / ص ٣١٤.

٣١ـ احمد ابو حاقة / الالتزام في الشعر العربي / ص ١٧٢.

٣٢ـ ديوان الزهاوي / دار العودة / بيروت / ١٩٧٢ / ج ١ / ص ١٧٨.

٣٣ـ اليراع: الجبان والضعيف.

٣٤ـ المشير ٢١ ابريل ١٨٩٩ منقول عن شفيق البقاعي / ادب عصر النهضة / دار العلم للملايين / الطبعة الاولى / ١٩٩٠ / ص ٤٣.

٣٥ـ نفس المصدر وانيس المقدسي / الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث / ص ٢٢.

٣٦ـ ديوان ولي الدين يكن / ١٩٠ منقول عن سامي الكيالي / ولي الدين / دار المعارف بمصر / ص ٤١.

٣٧ـ محمد عبد المنعم خفاجي / قصة الادب في مصر / بيروت / دار الجيل / الطبعة الاولى / ١٩٩٢ / ج ٥ / ص ١٤٨.

٣٨ـ ديوان معروف الرصافي / ج ٢ / ص ٢٣٣.

٣٩ـ نفس المصدر / ص ٢٢٩.

٤٠ـ تخوتنا: تعهدتنا.

٤١ـ الضمير في (لها) يرجع الى (نفوس) في البيت السابق.

٤٢ـ لفحت الناقة: ضربها للفحل فحملت والحيال: عدم الحمل، يريد انك هيجت تلك الحرب بعد أن كانت ساكنة.

٤٣ـ عمر الدقاق / الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث / ص ٢١.

٤٤ـ المصدر السابق / ص ٤٤٧.

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:34 IRDT on Monday August 31st 2020

٤٥ـ حميد عنايت / سيرى در انديشهٔ سياسى عرب / ص ٥٢.
٤٦ـ المصدر السابق / ١٨٣.
٤٧ـ المصدر السابق / ص ١٧٨.
٤٨ـ راجع احمد ابو حاقة / الالتزام في الشعر العربي / ص ١٧٣ و ١٧٤.
٤٩ـ نفس المصدر / ص ١٧٤.
٥٠ـ نفس المصدر / ص ١٧٤.
٥١ـ جهينة هي قبيلة عربية من قبائل قضاعة التي كانت تسكن بين يثرب وحدود مصر.
٥٢ـ عمر الدسوقي / في الادب الحديث / ج ٢ / ص ٣٧٥.
٥٣ـ الصيد: ج الاصيد: الرجل الذي يرفع رأسه كبراً، المنك.
٥٤ـ القبب: ج القبة بناء سقفه مستديرة مقعر؛ هامات: ج هامة: رأس كل شيء.
٥٥ـ ديوان الاثري / المجمع اللغوي العراقي / الطبعة الاولى ١٩٩٦ / ج ١ / ص ٢٩٦.
٥٦ـ النشر: الريح العطية.
٥٧ـ الصهب: ج الاصهب: من خالط بياض شعره حمرة ـ العثانين: ج العثنون: اللحية والاعداء صهب العثانين وان لم يكونوا كذلك ـ استتب لهم الامر: استقام واستمر.
٥٨ـ ديوان «الحان الذهب» ص ٢٩ منقول عن عمر الدقاق / الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث / ص ٢١٢.
٥٩ـ عامل: جبل في لبنان اكثرية اهله من الشيعة واصل الكلمة عاملة وهي قبيلة نزلت تلك المنطقة فعرفت بهذا الاسم.
٦٠ـ ديوان القروي / منشورات جروس برس / طرابلس / ص ٣٥٤.
٦١ـ هلال ناجي / شعراء عين المعاصرون / منشورات مؤسسة المعارف / بيروت / الطبعة الاولى / ١٩٦٦ / ص ٢٨.
٦٢ـ ديوان حافظ ابراهيم / ج ١ / ص ٢٦٨.
٦٣ـ اي انتسب الى أي الامتين شئت فكلتاهما في العلاء والحسب سواء.
٦٤ـ الهلال: شعار الدولة العثمانية / وجب، يجب: اضطرب وهو هنا كناية عن الاشفاق على كلتا الامتين والرعاية لهما والحرص عليهما.
٦٥ـ يريد أن الامتين تجمع بينهما امومة واحدة وهي اللغة وابوة واحدة وهم العرب.
٦٦ـ لم أجد هذه الابيات في ديوان الشاعر فنقلتها عن البقاعي في كتابه «ادب عصر النهضة» ص ٤١.
٦٧ـ دار الكتاب العربي / بيروت / الطبعة الرابعة / ١٩٩٣ / ص ٢٤٢.
٦٨ـ انيس المقدسي / اعلام الجيل الاول / بيروت / ١٩٧١ / ص ٤٤٨.
٦٩ـ محمد هدارة: تيارات الشعر العربي المعاصر في السودان / دار الثقافة / بيروت / ١٩٧٢ / ص ٥٤.
٧٠ـ نفس المصدر / ص ١١٨.
٧١ـ حميد عنايت / سيرى در انديشه سياسى عرب / ص ١٩٤.
٧٢ـ عمر الدقاق / الاتجاه القومي في الشعر الحديث / ص ٢١٧.
٧٣ـ ديوان حافظ ابراهيم / ج ١ / ص ٢٥٣.
٧٤ـ الشوقيات / ج ١ / ص ١١٦.
٧٥ـ انيس المقدسي / الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث / ص ١١٣.
٧٦ـ نفس المصدر / ص ١٢٩.
٧٧ـ عمر الدقاق / الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث / هامش ١ ص ٢٢٠.
٧٨ـ ديوان حافظ ابراهيم / ج ١ / ص ٢٥٣.
٧٩ـ رجعتُ لنفسي: تأملت. الحصاة: الرأي والعقل. احسست حياتي: عددتها عند الله في يدخر. يقول على لسان اللغة العربية التي عدت الى نفسي وفكرت فيما آل اليه امري فاسأت الظنّ بمقدرتي وكدت أصدّق ما رموني به من قصور وناديت الناطقين بي ان ينصروني فلم أجد منهم سميعاً فادخرت حياتي عند الله.
٨٠ـ لعداة: الاعداء. يقول: اتهموني بانني لا أدعى حين اني في ريعان شبابي. كُبي بالعقم هنا عن ضيق اللغة وجمودها.
٨١ـ يريد «بالعرائس» الالفاظ المجموة الحسنة. وأد البنت: دفنها حية.
٨٢ـ الثوثة: عدم الاباية ولعاب الافاعي: سمها. الفرات: الماء العذب.
٨٣ـ ديوان لبنان / ٩١ منقول عن محمد مصطفى هدارة: تيارات الشعر العربي المعاصر في السودان / ص ٦١.
٨٤ـ أطلّ عليه: اشرف.
٨٥ـ الفجر الصادق: ٢٧ منقول عن المصدر السابق.
٨٦ـ تتجهم له: تستقبله بوجه عابس.
٨٧ـ ديوان خليل مردم بك / دار صادر / بيروت / الطبعة الاولى ١٦٢.
٨٨ـ العراب من الابل أو الخيل: كرائم سالمة من اهجنة. الاعلاج: علج: لغير: الحمار.
٨٩ـ ديوان القروي / ص ٢٣٤.
٩٠ـ يرطنون: يكلمون بالاعجمية.
٩١ـ ابن ساعدة: المرادفس بن ساعدة الايادي خطيب معروف جاهلي.
٩٢ـ عمر الدقاق / الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث / ص ٤٢٠.
٩٣ـ ديوان / ج ١ / ص ١٧٨.
٩٤ـ ديوان الانفاس الملتهبة / ص ٧٢ منقول عن الاتجاهات الادبية / انيس المقدسي / ص ١٤٤.
٩٥ـ ديوان خليل مردم بك / ص ١١٩.

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:34 IRDT on Monday August 31st 2020

٩٦ـ ديوان محمد الجواهري / ص ١٦.
٩٧ـ الشوقيات / ج ٣ / ص ١٧.
٩٨ـ ركز اللواء: غرزه في الارض.
٩٩ـ الحربة الحمراء: هي المكتسبة بالدم.
١٠٠ـ ديوان الجواهري / ج ٢ / ص ١٩٣.
١٠١ـ هَوِيَ، يهوي: احبّه واشتهاه.
١٠٢ـ جالده: مجادلة وجلاداً بالسيف: ضاربه به والجلاد، معطوف على «جهاداً» في الشطر الاول.
١٠٣ـ السم الزعاف: السم القاتل بسرعة.
١٠٤ـ نضال المستبد: بدل من «سم زعاف» في البيت السابق.
١٠٥ـ ديوان حافظ ابراهيم / ج ٢ / ص ١٤٩.
١٠٦ـ جثا الرجل يجثو: جلس على ركبتيه والمراد هنا: الخضوع.
١٠٧ـ الذاوي: الذابل.
١٠٨ـ الغافي: النائم.
١٠٩ـ المعروف (دوّى) بتشديد الواو، واسم الفاعل منه: مدوّ واما (دوى) بالتخفيف فهو استعمال شائع في كلام اهل العصر.

المراجع والمصادر

١ـ ابو حاقة، احمد. الالتزام في الشعر العربي. دار العلم للملايين، الطبعة الاولى، ١٩٧٩.
٢ـ الاثري، الشيخ بهجة. ديوان. مجلدان، المجمع اللغوي العراقي، الطبعة الاولى، ١٩٩٦.
٣ـ افرام البستاني، فؤاد. المجاني الحديثة، الطبعة الثالثة.
٤ـ انطونيوس، جورج. يقظة العرب، ترجمة ناصر الدين أسد واحسان عباس، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٧٤.
٥ـ باركلي، گالن جي. ناسيوناليسيوم قرن بيستم، ترجمة يونس شكر خواه، نشر سفير، تهران، ١٣٦٩.
٦ـ البقاعي، شفيق. ادب عصر النهضة، دار العلم للملايين، الطبعة الاولى، ١٩٩٠.
٧ـ حافظ ابراهيم. ديوان، مجلدان، دار العودة، بيروت.
٨ـ الصوفي، احمد محمد. وطنية شوقي، الهيئة المصرية العالمية للكتاب، الطبعة الرابعة، ١٩٧٨.
٩ـ خفاجي، محمد عبد المنعم. قصة الادب في مصر، دار الجيل، بيروت، الطبعة الاولى، ١٩٩٢.
١٠ـ الخوري، بشارة (الاخطل الصغير). ديوان دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٩٣.
١١ـ الخوري، رشيد سليم (القروي). ديوان، منشورات جروس برس، طرابلس.
١٢ـ الدسوقي، عمر، في الادب الحديث، دار الفكر، الطبعة السابعة، ١٩٧٣.
١٣ـ الدقاق، عمر، الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث، دار الشرق العربي، ١٩٨٥.
١٤ـ الرصافي، معروف، ديوان، مجلدان، دار العودة، بيروت، ١٩٨٦.
١٥ـ الزهاوي، جميل صدقي، دار العودة، بيروت، ١٩٧٢.
١٦ـ سعيد، امين، الثورة العربية الكبرى، مكتبة مدبولي.
١٧ـ شوقي، احمد، الشوقيات، ٤ مجلدات، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الحادية عشرة، ١٩٨٦.
١٨ـ عنايت، حميد، سيرى در انديشه سياسى عرب، مؤسسه انتشارات امير كبير، تهران، چاپ چهارم، ١٣٧٠.
١٩ـ فرهود، احمد عبد الله، تاريخ شعراء العربية، دار القلم العربي، الطبعة الاولى، ١٩٩٨.
٢٠ـ الكيالي، سامي، ولي الدين يكن، دار المعارف بمصر.
٢١ـ مردم بك، خليل، ديوان، دار صادر، بيروت، الطبعة الاولى.
٢٢ـ مطران، خليل، ديوان، دار مارون عبود، بيروت.
٢٣ـ المقدسي، انيس، اعلام الجيل الاول، بيروت ١٩٧١.
٢٤ـ المقدسي، انيس، الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٧٣.
٢٥ـ نقوي، علي محمد، اسلام وملى گرايى، دفتر نشر فرهنگ اسلامى، زمستان ١٣٦٠.
٢٦ـ الهدارة، محمد، تيارات الشعر العربي المعاصر في السودان، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٢.
٢٧ـ البازجي، ابراهيم، ديوان، قدم له مارون عبود، دار مارون عبود، ١٩٨٣.

* * *